بين الخرائب والأطلال

« لكيلانتى ! . . . »

فى ميدان كرستوف كولومب بميناء برشلونة ، وعلى بعد بضعة أمتار من ساحل البحر الأبيض ، ترى بناء مهدماً من الطراز القوطى العتيق ، تكاد العين تنكر مكانه فى هذا الميدان الجميل ، لولا ما يلوح عليه من آثار مجد قديم . وليست ضخامة البناء هى التى تروعك ، وإنما يروعك منه تفرده وجلاله ، على رغم ما نال منه البلى وأخذ الزمان . . .

قيل لنا : هنا المتحف البحرى Museo Maritimo . وفتح أمامنا بابه الضخم العتيق ، فدخلنا نشق طريقنا بين خرائب وأطلال قدستها أسبانيا الجديدة فتركتها كما هى : بترابها وأنقاضها وأعشابها ، بقية من دار الصناعات القديمة Atarazanas التى كانت هناك ما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر .

ثم ما لبثنا أن رأينا وسط هذه الخرائب ، صالات من أفخم صالات العرض وأحدثها طرازاً وأجملها تنسيقاً ، تقدم لنا نماذج ولوحات وصوراً ، للسفن الأسبانية الأولى وبناتها الخالدين ، وترينا آثارهم التى تركوها ، وتتلو علينا أناشيدهم وأغانيهم .

يحسب الزائر الغريب حين يرى هذا التحف الحديث بين الخرائب والأطلال فى المبنى العتيق ، أنها صورة واحدة ، تألفت هكذا بمحض المصادفة ، أو لاعتبار مادى من الانتفاع بالمبانى القديمة توفيراً واقتصاداً ، لكنه لا يلبث غير بعيد حتى يدرك أن ما حسبه قد قام بمحض المصادفة أو لاعتبار مادى قريب ، لم يكن سوى اتجاه مقصود مسدد ، لضم الجديد إلى القديم ، وبناء الحاضر على الماضى .

وذلك هو طابع الحضارة الأسبانية اليوم .

ترى مثل هذا الطابع المتميز فى متحف برشلونة ، إذ تسلك إليها طريقاً قديماً ضيقاً ، تقوم على يمينه الكاتدرائية العتيدة التى تبلغ من العمر ستة قرون ، ويقوم على يساره قصر محكمة التفتيش Palais de l'Inquisition وإلى جانبه متحف المخطوطات الشهير Archive de la Couronne d'Aragon الذى يعد ثانى متحف من نوعه فى العالم ، فليس يفوقه سوى متحف الفاتيكان .

وينتهى بك هذا الطريق الأثرى الذى تحف به المبانى الأثرية ، إلى مبنى جميل حديث الطراز ، تحسبه مسكناً لوجيه من سراة القوم . فى هذا المبنى الجديد ، أطلال مدينة برشلونة القديمة .

تدخل من بابه الأول ، فتستقبلك صالة حديثة للعرض ، بها كل المؤلفات التاريخية عن مدينة برشلونة ، وفيها نماذج من القطع الأثرية المتخلفة من عهودها الأولى . ويمضى بك سرداب طويل منحدر إلى ما تحت البناء ، فاذا أمامك مدينة برشلونة بمقابرها وأطلالها ومعالمها ، فى عهدها الرومانى الأول (٢ ق.م : ٣م) . وإلى جانبها مدينة برشلونة فى عهدها الثانى إلى قبيل العصور الوسطى . هناك ترى الأحجار المتخلفة من خرائب المبانى التى هدمتها غارات البربر . وترى الحمام الرومانى القديم ، كما ترى المواقد والأوانى ، والمناسج والرحى . وقد أحيطت هذه المنطقة الأثرية بجدر واقية متينة ، وأقيمت بينها أعمدة من الفولاذ والأسمنت المسلح ، ثم شيد فوقها ذلك المبنى الحديث ، حيث سجلات المتحف ومكاتب موظفيه .

ودع مدينة برشلونة بمتاحفها وخرائبها ، وامض إلى لريدا ، وسرقسطة ، ومدريد ، تر مثل هذا الطابع سمة حضارتها . وهو يتجلى فى أروع صوره ، فى دير الأسكوريال ثامن عجائب الدنيا . أقيم هذا البناء الشامخ الفخم على أنقاض كنيسة صغيرة للقديس لورنسو San Lorenzo راعى الملوك الأسبان ، وكانت الكنيسة تهدمت فى غارة عدائية ، فأقام الملك فيليب الثانى هذا الأثر الخالد فى القرن السادس عشر تحيـة وترضية ، وقرباناً وذكرى . وشيد فيـه جناحاً ملكياً ما يزال حتى اليوم محتفظاً ببهائه القديم ، وأثاثه الأول ، ولوحاته الرائعة التى تغطى جدرانه جميعاً . بل ما يزال حتى اليوم مبقياً على الفراش الذى لفظ فيه الملك فيليب آخر أنفاسه .

ويرى الأسبان أن الاسكوريال ، يمثل الروح الاسبانية فى بساطتها وقوتها ، واستقامتها وخلودها واعتزازها بقديمها . وهم لذلك يحرصون على أن يمضوا بضيوفهم إليه . وقد استقبلوا فيه قبيل رحلتنا ، السنيورا إيفا بيرون عقيلة رئيس جمهورية الأرجنتين .

ثم دع الأسكوريال بعظمته وبهائه ، واقصد إلى طليطلة على بعد سبعين ميلا من العاصمة ، وهناك التمس قصرها التاريخى الخالد Alcazar de Toledo على الربوة العالية التى تلتف حولها المدينة وتحف بها فى تقديس وإعزاز . قف على باب القصر المهدم برهة ، وطأطئ الرأس مهابة وإجلالا ، ثم اتبع الدليل وهو ينتقل بك بين الأطلال ، حيث أقامت أسبانيا أمجد وأحدث متاحفها القومية .

شيده شارلكان فى عهده الزاهر ، ثم صار إلى أكاديمية حربية حتى قامت الحرب الأهلية المعروفة ، فرأى فيه الأسبان حصناً منيعاً ، لاذ به جمع من البيوتات الكبيرة ، وأووا إليه بأرواحهم ، صفر الأيدى من الزاد والعتاد . . .

وأحاط الأعداء الحمر بالحصن محاصرين ، ولبثوا مقيمين على الحصار اثنين وسبعين يوماً ، وأهل الحصن ثابتون صابرون ، يحتملون من مرارة الهجوم وعنف الحصار ، مثل الذى يكابدون من قسوة الجوع وحرقة الظمأ . . .

ثم حانت لحظة حاسمة : من تلك اللحظات التى يقف التاريخ فيها مترقباً ينتظر كلمة واحدة ليوجه سير الأحداث ، ويقرر مصاير الشعوب . ظفر الأعداء بفرانسوا ، ابن الجنرال موسكاردى رأس المدافعين عن الحصن . وكان فرانسوا شابا يافعاً ، مات أخ له فى الحرب من قبل .

والتمس قائد الأعداء خصمه فى « التليفون » منذراً إياه بقتل ولده إن لم يسلم الحصن فى عشر دقائق . ثم بدا له فى تلك اللحظة أن يدع فرانسوا يخاطب أباه ، تأييداً لما ادعاه من ظفره به . وإثارة لعاطفة الأبوة فى القائد الشيخ . وأصغى الزمن إلى الشاب وهو يقول لأبيه :

— أموت يا أبى ، وتعيش أسبانيا . وداعاً .

وهناك فى هذا القصر المهدم ، ترى صورة الشاب الشهيد فى قاعة القائد ، وتقرأ الحديث التاريخى مسجلا فى لوحة علقت إلى جانب « التليفون » الذى صار أثراً قوميا . فاذا تركت القاعة ، ألفيت فى صدر الممر أمامها ، تمثالا

لموسكاردى القائد ، شامخ الرأس ، باذى العزم ، مهيب السمات . وينتهى بك الممر إلى « غرفة الشهداء » حيث ينتظرك مشهد رائع رهيب لا ينسى .

« لا تبك على هؤلاء الذين ماتوا من أجل الوطن . »

هذا هو نشيد الفداء ، يلقاك حين تلج الباب ، منقوشاً على الصخر ، يتوج هامات الشهداء . . .

ثم هذه هى أسماؤهم ، محفورة فى لوحات رخامية متراصة ، جنوداً وضباطاً قد جمعهم الجهاد القومى المشترك ، وسوت بينهم الميتة المجيدة التى ختمت حياتهم جميعاً فى ميدان واحد .

وتطل هذه اللوحات على قبر يتوسط القاعة : قبر بسيط خال ، أعد لموسكاردى البطل ، بين صفوف جنوده الخالدين .

ويقودك الدليل بين خرائب القصر ليريك قاعة أخرى تحت الأرض . إنها « غرفة الحياة » حيث ترى كل ما أبقى الحصار الطويل الناهك لأهل القصر من ذخائر ومؤن ، تركتها أسبانيا فى مكانها ، تتلو على الأجيال الخالفة ، آية الشجاعة ، ونشيد البطولة ، وقصة الفداء . . .

هنا حفنة من القمح لا تزن رطلا ، وكسرات من خبز قديد لا تشبع طفلا ، وقارورتان من اليودوفورم والكحول ، وثلاث علب صغيرة فيها بقية ضئيلة من المساحيق والعقاقير . . .

وهناك . . . واجهة زجاجية ، تحفظ ما كان فى القصر يوم أنقذ ، من أسلحة وذخائر . وأخرى بها الكوز الصفيح الذى كانوا يشربون به ، والأوعية البسيطة التى اخترعتها لهم الحاجة وصنعها الاضطرار .

أما صدر القاعة ففيه الفرن الذى ألفوه مما لديهم من متاع ، و «الموتوسيكل» الذى حوروه إلى طاحونة للقمح وآلة لرفع الماء !

بهذا الأسلوب تمجد أسبانيا شهداءها ، وتقدس ذكرياتها ، وتحيى أسمها .

إنها لم ترفع أنقاض القصر القديم ولم تنسف خرائبه ، وإنما اعتزت بكل ما بقى منه ، وأقامت على أطلاله متحفها القومى الحديث ، ومدرستها الوطنية الأولى . . .

وذلك هو أسلوبها المختار : تراه هنا فى طليطلة ، كما رأيته هناك فى برشلونة وسرقسطة والاسكوريال ، وكما ستراه بعد فى غرناطة ، حيث أقيم معهد الدراسات

لعربية فى قصرقديم لأحد أمراء العرب بمحلة البيازين Albaïcin ، وكما سوف نراه حيثما توجهت وأنى ذهبت .

إنه طابع الحضارة الأسبانية : اعتزاز مؤثر بالتراث القديم ، وإصرار عجيب على الجمع بين الحضارتين الموروثة والمكتسبة ، وقدرة نادرة على مزجهما معاً ، وصوغهما صياغة قومية فى مهارة تدعو إلى التقدير .

ولعلك لا تخطئ هذا الأسلوب هناك فى اللغة وفى الفن ، كما لم تخطئه فى المعالم الأخرى للحضارة الأسبانية . فالطابع المتميز للفن الأسبانى ، هو تلك الروح الشرقية التى تأتلف بالأسلوب الغربى فى التعبير والأداء . وقد جمع هذا الفن عناصر واضحة من الشرق والغرب ، من القديم والجديد ، من الاسلام والمسيحية ، كما احتفظت اللغة الأسبانية بكثير من مفردات العربية وأساليبها فى البناء .

ولقد دهشت لهذا أول ما رأيته ؛ إذ كنت أحسب أن الأسبان يبرءون من الشرق والعرب ، ويحاربون كل ما هو شرقى عربى ، وعذرتهم فى هذا ، فما كنا نفعل سواه لو أنا مكانهم . لكن الغريب أنهم لم يعودوا يحاولون أن يقطعوا من تاريخهم هذه القرون الثمانية التى عاشها العرب هناك سادة وملوكاً ، أو يفصلوا من دمائهم العنصر الغربى الذى سيط بالدم الأسبانى الأول ، واستحال بعد ذلك أن يتزايلا .

هم لا يحاولون ذلك ، أو لعلهم قد حاولوه فلم يستطيعوه ؛ فقد دخل العرب فى تاريخهم وفى دمائهم ، وتركوا أثرهم الخالد على أرضهم ، وخلفوا طابعهم الخاص فى فنهم وحضارتهم . والأسبان يعترفون بذلك فيقررون : « أن الغزو العربى قد ترك فى الاقليم أعمق الآثار . . . ولقد كانت هناك فترات اتصل فيها المسلمون بالمسيحيين وعاشوا فى صداقة وألفة ، فامتزجت العناصر العربية بالأسبانية امتزاجاً ترك أثره الواضح فى الفن والعادات المسيحية ، بحيث أصبح اسم (أسبانى) يطلق على المزارع المسلم فى عهد خليفة قرطبة ، كما يطلق على الفارس المسيحى من قسطيلة أو ليون . (١) »

كما يقررون فى مكان آخر « أن أهم خصائص الطابع الأسبانى ، هو ذلك الجو الشرقى الذى يسوده . فروح الشرق قد تعمقت فى صميم كل ما هو أسبانى ،

---

(١) *Spain*, p. 18

والاختلاط المستمر بالعرب قروناً ، ترك على أرض أسبانيا ، كما ترك فى روحها ، آثاره الواضحة الصريحة ؛ وهذا هو مايميز أسبانيا ويجعلها ذات طابع فريد بين بقية الأمم الأوربية الأخرى .

« One of the most typical peculiarities of Spain is its eastern atmosphere. The spirit of the East has soaked down into the inner essence of that which is Spain. A continuous association of centuries with Arabs has left in the land as in the soul of Spain visible traces. It is this what makes Spain unique among the rest of European nations. » (١)

وترى هذا الطابع الفريد — حيث العنصران حاضران ماثلان — فى الكنائس ، مثل كنيسة سان ميجويل فى ليون ، وسانت ماريا فى سانتندر ، كما تلمس الايحاء الشرقى واضحاً فى أكثر الكنائس الريفية . ولعل دير Guadalope أجمل مثال لذلك الطراز الجميل الذى يعشقه الأسبان . كذلك ترى مثل هذا الطابع فى الحصون مثل ترويل ، وسانتا كلارا ، وكوكا ؛ وفى قصر اشبيلية Alcazar de Séville بوجه خاص .

وإذا تركت المبانى ، ألفيت الطابع نفسه سائداً فى الصناعات الفنية الدقيقة ، حيث يعترف الأسبان بالأثر العربى القوى فيها ، وبخاصة فى العاج والنسيج والأسلحة والجلود ، والأسقف الخشبية .

والظاهرة العامة التى تلفت السائح الأجنبى اليوم اعتراف الأسبان بكل ما هو قديم ، لا يحول دون ذلك حائل من سياسة أو دين . فأسبانيا الجمهورية التى أنزلت الفونس الثالث عشر عن عرشه وأخرجته من وطنه ، احتفظت بتابوت فارغ بين قبور ملوك أسبانيا ، لتنقل إليه رفات ملكها الذى تركته يموت فى المنفى غريباً ، كما احتفظت لأمه بقبرها مع الملكات الأمهات فى المقبرة الملكية بالاسكوريال .

وأسبانيا المسيحية الكاثولوكية المتعصبة التى حاربت الاسلام فى إفريقية وأوربا ، لم تستطع أن تتجاهل الاعتراف بعظمة الخلفاء المسلمين الذين حكموها ، بل وضعتهم فى أماكنهم بين أعلام الأسبان . وهذا هو الكاتب

---

(١) *Spain*, pp. 18-20

الأسبانى المعاصر[1] ماريانو توماس Mariano Tomàs يؤلف كتاباً عن الخليفة عبد الرحمن الثالث ، حلقة فى السلسلة التى يكتبها عن مشهورى الأسبان *Espanolas Famoses* .

وفى الاسكوريال ، حيث الدير الأسبانى الأول ، وحيث الكاثوليكية المتعصبة تسود الجو وتسيطر على المكان ، ترى فى مكتبته الشهيرة هناك ، كنوز التراث العربى من المخطوطات النادرة ، قد أبقى عليها الأسبان واحتفظوا بها فى حرص بالغ . هناك ترى مصحفنا الكريم فى وسط بهو المعرض الفخم ، مع كتابهم المقدس جنباً إلى جنب ، حين كان ينتظر من أمثال هؤلاء المتعصبين الذين أقاموا دولتهم المسيحية على أنقاض الدولة الاسلامية إثر صراع طويل دام ، أن يحرقوا كل أثر للعرب ، وأن يمزقوا قرآنهم كما فعلوا بمن ظفروا بهم من المسلمين . ولكن الأسبان الذين دفعهم الحقد والتعصب إلى مطاردة المسلمين و إذاقتهم فنون التعذيب وألوان النكال ، قد أدركهم الرشد فأبقوا على آثار العرب وكتبهم ، وتركوها تأخذ مكانها بين تراثهم الغالى . وهكذا ترى فى أسبانيا الحديثة قصر محكمة التفتيش قائماً فى مكانه إلى جانب كاتدرائية برشلونة ، كما ترى قصر الحمراء فى مكانه بغرناطة ، شاهداً على الحضارة العربية الزاهرة ، وصورة من المجد الاسلامى الأندلسى ، وكما ترى نفائس المخطوطات العربية فى مكتبة دير الاسكوريال . وفى القسم العربى بالمكتبة الأهلية فى مدريد .

أكان الأمر عليهم سهلا هيناً ؟ إن آثار العرب هناك تجيب عن هذا السؤال بما لا تزال تحمل من ندوب الصراع الرهيب الذى عاناه القوم ، مترددين بين محو كل ما هو عربى إسلامى ، وبين الابقاء على ما صار قطعة من حياتهم وجزءاً من ماضيهم . فأنت تلمح مافعل بهم التعصب الحاقد فى تلك الصلبان التى أضافوها إلى مثل أبواب مسجد قرطبة الشهير ، وفى المآذن التى جعلوها أبراجاً للنواقيس ، وفى المساجد التى حولوها إلى كنائس

---

(١) طبع هذا الكتاب عام ١٩٤٧ ، وماريانو كاتب أديب شاعر ، ظهر له ديوانان ، وخمس مسرحيات ، وسبع عشرة قصة ، وست تراجم لأعلام الأسبان .

أو أعادوها إليها كما يقولون ، وفى الصور السيحية التى ملأوا بها جدران المصلى فى طليطلة ، وفى . . . وفى . . . وفى . . .

ولقد كنا نشهد هذا فنمسك عبراتنا تجملا ومداراة ، ونطوى جوانحنا على الهم ، وتتجاذبنا عوالم شتى نتنقل فيها بين هذه العواطف المجهدة ، وبين عواطف أخرى أرحب مدى وأوسع مجالا . . . هنالك حيث كنا نأمل للانسانية حظا من سعة الأفق يقيها مثل هذا الصراع الدامى المجهد ، ويريحها من ذلك العناء فى المحو والاثبات ، ويجعلها تنتفع بتعاون الأجيال المتتابعة فى التعمير والبناء ، ويوفى بها على شئ من السماحة يعفيها من مرارة الحقد وإجهاد التعصب ، ويحمى لها تراثها على مر الأجيال .

تجاذبتنا هذه العوالم المتباينة ونحن نطوف بمشاهد الحضارة الاسلامية فى أسبانيا ، حيث كانت أطياف الملوك والأمراء من العرب تحيط بنا ، ورؤى مجدهم الذاهب تتراءى لنا ، وأشباح ماضيهم تتبعنا وتأخذ علينا كل سبيل .

أى مجد قد راح . . .
وأى تاريخ قد طوى . . .
وأى عز قد اندثر !

ولكن . . . أحقا قد ضاع كل هذا واندثر؟

أما فى حساب هذه الأمة أو تلك فنعم ، وأما فى حساب الانسانيه فهو باق باق ، خالد خالد ، شخصت معالمه فى بناء الحضارة فلا تخفى . . . وسجلت آثاره فى تقدم البشرية فلا يمحى . . .

ولئن كان الأسبان قد أبقوا عليه بالأمس فخراً بما ظفروا ، ومباهاة بما نالوا ، وذكرى لما كان ، فانه اليوم يقوم بما للانسانية من حق فى حماية ماضيها ، وبما لها من أمل فى رقى غدها . . .

بهذا يقوم هذا الماضى فى حراسة الانسانية ، تتكئ عليه اليوم أمة تقوم بنصيبها فى الحضارة مهما يكن تعصبها الفردى أو شعورها الذاتى . . .

فلله ما أسدى أصحاب ذلك الماضى المجيد للانسانية العليا ، والمدنية السامية .